أسمعوها مني صريحة أيها العرب

لابى الحسن على الحسنى الندوى

رئيس المجمع الاسلامى العلمى بالهند

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمعوها منى صريحة أيها العرب

لو كانت أمة على وجه الأرض تستحق منى أكبر تقدير وأعظم اعجاب واكبار ، لكان العرب من غير نزاع ٠

ولو كانت نفسى تدفعنى الى المجاملة مع أمة من الأمم وتزينها لى لكانت أمتى العربية العظيمة ٠

وعندى مما أمدح به هذه الأمة العربية العظيمة بحق لكثير وواسع ، وعندى مما أرضى به نفوس هذه الأمة وأسماعها ، وأرضى به عاطفتى كعضو من أعضاء هذه الأسرة العظيمة الكريمة ، لكثير وكثير ، وكل ذلك مما يصدقه العلم والواقع ، ويقول العالم صدقت ، ويقول التاريخ عدلت وبررت ٠

ولكنى أعتبر هذه المجاملة في هذه المناسبة جريمة خلقية ، وأعتبرها خيانة عظيمة في حق هذه الأمــــة التى أدين لها فى الدين والاخلاق والانســـانية والشرف ، ويدين لها العـــالم والانسانية في حياتها الجديدة وفي عقيدتها وخلقها ، وليست أمة أحق بالأمانة وأحق بالصراحة وأحق بالنصح من هذه الامــــة التى مثلت الامانة في عهد سادت فيه الخيانة وصارحت في فترة طغت فيها المجاملات وصدقت في دور فشا فيه الكذب ونصحت في ساعة انتشر فيها الغش والخديعة ، فمن أحق بهذه الاخلاق العالية ، والمعانى السامية ، من هذه الامة ؟

ولكن من ينصح هذه الامة ومن يصارحها ومن يصدقها ؟ والزمن زمن السياسة وزمن تبادل المنـافع والمصالـــح وزمن الاستغلال وكل ذلك يقول ـ أو يعتقد أنه يقوم ـ على المجاملات وارضاء العواطف ، واطراء الحليف والزميـــل ، وتخـدير الاعصاب ، وعلى الغش والخديعة ، ويقوم على مدح القوميات وعلى مدح الحضارات القديمة التى تنتسب اليها الشعوب اليوم . وعلى الموافقة في خير وشر ورشد وغى ما لم تمس مصالح الامة الاخرى السياسية ومنافعها الاقتصادية .

ولكن عقيدتى ودينى الذى اؤمن بـــه وأدين ، يفرض علي

أن أكون صادقا وصريحا ، وصلتى بهذه الأمة ـ الدينية والنسبية والثقافية ـ تلزمنى بالصدق والصراحة والوفاء والأمانة، ثم اقتناعى بأن العرب هى الامة المختارة لحمل رسالة الاسلام قد كتبت لهم الوصاية على العالم ما داموا يدينون بهذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلمى بأن هذه الوصاية لم تحول عنهم بعد ، ولم تبرز أمة على منصة العالم تخلف هذه الامة وتضطلع بالامامة ، ولكنى أعرف أن الزمان زمان التحول والساعة ساعة الانتقال كالساعة التى شهد فيها العالم أكبر تحول في التاريخ وفي جدود الامم ، ساعة مرت في منتصف القرن السادس المسيحى تحولت فيها الامامة وتحول فيها منصب الهداية من بنى اسرائيل ـ الأذكياء المثقفين أصحاب الحضارة والعلوم والقرائح والمواهب ـ الى بنى اسماعيل أو العرب ـ الامة التى تغلب عليها الامية والبساطة والفقر والاعتزال عن العالم ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان أكبر تحول شهده التاريخ الجديد ، وكان لهذا الحادث تأثير ، في مصير الامم وأوضاع العالم ، واتجاه الانسانية لم يكن لحادث سياسى أو تحول اجتماعى أو ثورة أخرى •

انني لا أخاف أن يعود هذا المنصب الى بنى اسرائيل مرة

أخرى ، فليس هنالك ما يدل على ذلك وبنو اسرائيل في شغل عنه ، لا شأن لهم بالعالم وما يعانيه من أزمة روحية ودينية وخلقية ، أسسوا حياتهم الجديدة ودولتهم الوليدة على المادة والمعدة والتنظيم الصناعى والاقتصادى ، وجمعوا بين مبادىء كارل ماركس ـ الذى نبغ فيهم ونهض منهم ـ ووصايا ميكافيلى ، وحملوا معهم من أوروبا الى وطن اليهود ثمرات الحضارة الجديدة المادية اليانعة ، وحملوا معهم عصارتها وخلاصتها وشرورها وخبائثها ، فهم من أبعد الشعوب من أن تسند اليهم هداية الامم والوصاية على العالم ، ومن أن يؤمل فيهم النهوض برسالة الأنبياء الذين ينتسبون اليهم كثيرا ، ويتبجحون بهم كثيرا ، ومن أبعد الناس أن تنتظر منهم الثورة على الفساد الذى ظهر في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ومن أن يحملوا الى الغرب رسالة الانبياء والحياة الروحية والدعوة الى الوحدة الانسانية والفكرة الآفاقية والعالمية ، وأن يجاهدوا في سبيلهما ويتفانوا لأجلهما .

ولكن ليس العالم كله بنى اسرائيل وهم حفنة من البشر وقطعة صغيرة من الارض ، قد يفاجىء العالم شعب آخر أو بلد آخر لم يكن في الحساب كما فاجأ العرب العالم القديم .

وان هذا التحول يكون من غير نبوة جديدة ، فليس في النبوة المحمدية وفي تعاليمها وفي شرائعها ما يوجب التحول ، انهـا دائمة خالدة ، انها حية باقية ، انها سائرة مع الزمن بل سابقة للزمن ، انه سيكون تحولا في جملة هذه الرسالة وفي حماة هذه الرسالة وهى حاجة الانسانية ونداء الوقت .

والذى يطمعنى في هذه الكلمة ويغرينى بها هو حبى وحرصى على أن يستعيد العرب مكانتهم العالمية ويتسلموا هذه القيادة المباركة التى يقول الله عن حملتها « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » ، وأن يتحولوا عن المعسكر الذى يقول الله عن قادته وزعمائه « وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة هم من المقبوحين » بل يثوروا عليه ويعارضوه ويحاربوه وينادوا بأعلى صوتهم « كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده ، نادى بها جدهم ابراهيم في عصره وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون »

ان لى كلمة اليوم مع اخوانى العرب الذين يؤمنون بالله ورسوله ويؤمنون بهذا الدين ، ولى كلمة أخرى مع الذين يؤمنون بالعروبة وبالامة العربية وحدها ، وكلتا الكلمتين

صريحة وصادقة صدرت عن اخلاص وحب ونصح •

ان كلمتى مع اخوانى المؤمنين بالاسلام واضحة جدا ، وان خطبى معهم يسير جدا ، اسمحوا لى أيها الاخوان أن أردد لكم الكلمة النبوية المدوية التى خاطب بها رسول الله الأنصار يوم حنين وسجلها التاريخ بنصها وفصها : « ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ، وأعداء فألف بين قلوبكم » ، أيستطيع التاريخ العربى ـ وهو الصادق الامين ـ أن يشك في صدق هذه الكلمة أو أن يشك في حرف من حروفها أو نقطة من نقطها • لو كان هنالك مساغ للشك أو مجال للجدال لسارع اليه رجال عرفوا بالشجاعة والصدق ، ولكنهم قالوا صدقت لله ولرسوله المن والفضل ، وقال التاريخ صدقت لله ولرسوله المن والفضل •

ألم تكونوا ضلالا باتفاق العقلاء والمنصفين منكم ، ألم تشهدوا على نفوسكم بالضلال مرارا وفي مناسبات كانت أحق بالفخر والمباهاة ونفى الاتهامات والشائعات ، ان كانت مجرد اتهامات وشائعات ، أما شهد به جعفر في مجلس النجاشى ، وشهد به خالد أمام قادة الرومان وشهد به المغيرة بن شعبة وربعى بن عامر في مجلس رستم ويزدجرد •

وأى ضلال بالله أعظم من عبادة الأوثان في العقيدة والدين وعبادة الشهوات في الأخلاق ، ووأد البنات في الاجتماع ؟

ألم تكونوا عالة تجدون من الأقوات والأكسية النزر اليسير قد استبد بأفضلها وأكثرها وألينها الروم والفرس ، ألم يقل لكم يزدجرد يوم تقدمتم الى عاصمته تتحدونها وتتهددونها بقوة ايمانكم ودينكم الجديد : « وان كان الجهد دهاكم ، فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم » فلم يكذبه أحد من رسلكم والعرب أسرع الناس الى تصديق الواقع والاعتراف بالحق ، وتكذيب الباطل ونفى الافتراء وأجرؤهم على الملوك والامراء .

ألم تكونوا أعداء بأسكم بينكم شديد وقلوبكم شتى ، والقبائل دائما في حرب دائمة أو هدنة عارضة ، وقد شهد التاريخ على أرضكم أطول حروب وأشأمها لأهلها في تلك البيئة المحدودة ومن يستطيع أن ينسى حرب بسوس وداحس والغبراء ؟ وما يوم حليمة بسر !

ألا لا يشكن أحد في نزعتى ولا يرمينى أحد بالشعوبية وحمية الجاهلية فانى لا أقل عن أكبر عربى يعيش في العواصم العربية

في عربيتى ونسبى الصريح المتصل وحبى للعرب وتضلعى من ثقافتهم وعلومهم وآدابهم ولغتهم ، وليس أحـــد من اخوانى العرب الاقحاح اولى بالاعتزاز بالعربية منى وأوفر نصيبا فيهـا منى ولكن الاسلام أفضل من كل نسب وأقوى من كل عصبية.

ثم ماذا كان ؟ اسألوا التاريخ واسألوا ضمائركم وقلوبكم ، **هبت عليكم** نفحة من **نفحات** الاسلام وقام فيكم محمد بن‌عبدالله **صلى الله عليه** وسلم ، وكان آخر الامر منكم جميعا اجابته الى **ما دعا** وتأييده **في** ما جاء به فأصبح الذين **كانوا** بالامس ضلالا لا يعرفون دينا ولا يحملون علما هداة معلمين وأئمة مرشدين ، حملوا النور والهدى والحياة الى أقصى العالم « يدعون من ضل الى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتـــاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لابليس قد أحيوه ، وكم من تائه ضال قد هدوه ، **فما أحسن** أثرهم على الناس » (١)

وكيف كان أثرهم على الناس ؟ اسألوا في ذلك تاريخ العـالم بعد القرن السادس المسيحى ، ما أعظم اختـــلافه عن القرن

---

(١) من كلام الامام احمد

السابق ؟ وما أعمق أثره في العقائد والاخلاق والاجتماع •
وكيف قامت دولة التوحيد والايمان ، وكيف قامت سوق الجنة ، هل قامت دولة التوحيد والايمان هذا القيام في عصر من العصور ؟ وهل نفقت سوق الجنة هذا النفاق قبل محمد صلى الله عليه وسلم وقبل أن يقوم العرب لنشر رسالته ؟ وهل انتشرت الهداية هذا الانتشار العظيم قبل مبعث الرسول ونهضة العرب ؟

وكيف كان غناكم أيها العرب بعد البعثة العربية والفتح الاسلامى العربى ، ألم يكن غنى تخطى القياس وتجاوز حدود الشرع والاخلاق وكان موضع نقد شديد من العلماء وان كنتم في شك من ذلك ــ ولا أخالكم ــ فاقرأوا قصص الترف الاموى واقرأوا قصة عرس المأمون ودعوة ابراهيم ابن المهدى للرشيد وتأملوا في انقلاب الاوضاع الاقتصادية في جزيرة العرب وفي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وعموم الغنى في العصر الأموى حتى كان الوالى يبحث عن فقير يقبل الزكاة فلا يجده وكيف امتدت دولة الاسلام حتى استطاع الرشيد أحد ملوكه أن يقول لسحابة وقد مرت به « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » وفي ذلك بلاغ ومقنع •

وكيف كان اتحادكم بعد الافتراق وحبكم بعد التباغض وايثاركم بعد الأثرة اسألوا عن ذلك الأوس والخزرج واسألوا عن ذلك الأنصار والمهاجرين واقرأوا قوله تعالى « وأذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » ولم يشهد التاريخ الانسانى أخوة أمتن ولا أطهر ولا أبعد عن الأغراض ولا أعمق من هذه الاخوة وانظروا كيف حاربت القبائل ـ المتناحرة بالامس ـ تحت راية المثنى بن حارثة وسعد ابن أبى وقاص وخالد بن الوليد وعقبة بن نافع وقتيبة بن مسلم وموسى ابن نصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم وكيف حاربت الامم والشعوب ـ المعادية المتباعدة بالامس ـ تحت راية صلاح الدين الايوبى ، ألم يكن ذلك كله معجزة الاسلام وتصديق قول الرسول : « ألم آتكم أعداءا فألف بين قلوبكم » ، ألا تزال العقيدة الاسلامية والرسالة المحمدية تجمعان أمما وشعوبا من أعظم الامم والشعوب تباعدا في الاوطان واختلافا في الحضارات والثقافات وتنوعا في الآلسنة واللغات ، هل توجد مجموعة بشرية تختلف في الالوان هذا الاختلاف وتتحد في العقيدة والغاية والنفسية هذا الاتحاد ؟

ألم يكن كل ذلك عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم

وحده وعن طريق دينه الذى جاء به وحده لا يشك فى ذلك مؤرخ ولا يشك في ذلك منصف ولا يشك في ذلك قومى فحقائق التاريخ أجل من أن يتناولها الشك أو يسوغ فيها الجدال ؟

ثم ماذا كان ؟ اسمحوا لى ولا تؤاخذونى - في عصر القوميات وفي العصر الذى أصبح العرب - حاشا المؤمنين منهم - فيه يتناسون محمدا صلى الله عليه وسلم وما جاء به من النعمة • وأصبحوا يؤسسون حياتهم وسياستهم على الوحدة العربية ، والقومية ، والوطن العربى ، ألم يكن ضلال بعد هدى ، ضلال في العقيدة والعمل والاخلاق والاجتماع ، وفوضى فكرية هائلة ، وتفسخ خلقى واجتماعى لا يقل - في العواصم العربية الكبرى - عن التفسخ الخلقى والاجتماعى في الجاهلية الاولى ، وقد يفوقه بالتنظيم والانتشار ، وبأنه قد صار فنا وصناعة وتجارة •

ألم تكن أزمات ومشاكل لا تنتهى وفقر مدقع في بعض الطبقات وسوء توزيع ، أما أصبحت الشعوب العربية كلها أو جلها عيالا على الغرب أما أصبحت مسألة اللاجئين عقيدة لا تحل ، أما أصبحت البلاد العربية مهددة بالشيوعية ؟

ثم ألم تكن فرقة بعد وحدة ، وانقسام بعد اجتماع شمل واتحاد كلمة ، وليس هنالك ما تخلف الرابطة الاسلامية وتقهر الشهوات - شهوة الحكم والزعامة والاستقلال بالمجد ، والانانيات والاغراض الجنسية - وقد ظهر ضعف الرابطة العربية عن قهر هذه الشهوات والنزوات لتجردها عن عقيدة قوية وايمان عميق وتربية صالحة في الايام التى أكتب فيها هذه السطور ولست أدرى ماذا يفاجئنى العالم صباح الغد ، وقد انقسم المعسكر العربى الى جبهتين أو ثلاث جبهات .

ان الفرد العاقل يوازن بين ربحه وخسارته ودخله وخرجه أليست - لأمة - كالامة العربية العظيمة الحكيمة ، أن توازن بين ربحها ودخلها لما استمسكت بغرز محمد صلى الله عليه وسلم واعتصمت بدينه وحملت رسالته ، وبين خسارتها وخروجها لما انفصلت عن ركبه وانطوت على نفسها وعاشت في عزلة عن العالم الاسلامى وأصبحت تنظر الى القومية العربية كعوض عن القومية الاسلامية .

ان الكلمة الصريحة التى أريد أن أقولها لكم أيها الاخوان العرب ، وقد قلتها فى ناد عربى أمام لفيف من أعيان

العرب ، هى : « انما تتشرف الامم والجماعات والافراد ويكتب لها البقاء والعزة والنصر باتباع هذا النبى الكريم والاعتزاز بدينه والتمسك بأهدابه وحمل رسالته وأمانته ، ومن استغنى عنه أو رأى الشرف في غير اتباعه أو ثار على امامته العامة الخالدة التى فرضها الله على أجيال الانسانية كلها وعلى أدوار التاريخ كلها وقطع صلته عن دوحته العظيمة وشغل بنفسه وشهواته ومصالحه الشخصية عن حمل رسالته وأداء امانته ، محي من الوجود واخمل ذكره وأصبح مطموسا منكوسا وكان كورقة قد انفصلت عن شجرة خضراء فتذوى سريعا وتصبح هشيما تذروه الرياح عربيا كان أو تركيا هاشميا كان أو تميميا ـ هذا قضاء الله وحكمه ولا راد لقضائه . »

فلا دعوة أيها الاخوة الكرام ولا هتاف في بلد عربى الا « الى الدين من جديد » الى محمد صلى الله عليه وسلم من جديد ، الى الثورة على فلسفة الحياة الغربية وعلى المادية فلا مستقبل للعرب ـ ألا فليسجل التاريخ وليدون الكتاب وليسمع العرب جميعا ـ الا بالاسلام والاجتماع تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم » (١)

---

(١) من الرسالة الى الراية المحمدية ايها العرب للكاتب ص٦

وكلمة أزفها الى اخواننا العرب الذين يؤمنون بالعروبة كعقيدة ورسالة وينظرون الى الامة العربية كأمة لا تعيش الا على مواهبها الكامنة ، ولغتها العظيمة ، وصلاحيتها للبقاء ، وموقعها الجغرافي ، وأهميتها السياسية ، ويعتقدون أن شخصية الامة العربية أقدم وأضخم من الرسالات السماوية ، والعقائد الدينية ، فقد كانت هذه الأمة قبل أن تكون هذه الرسالات ، وستظل بعد هذه الرسالات ، وتستطيع أن يعيش بغيرها .

انا نلتقى بهؤلاء القوميين في تقدير الامة العربية والاعجاب بشخصيتها القوية ومواهبها العظيمة وصلاحيتها للبقاء ، واجلال لغتها العبقرية ، انهم لا يسبقوننا في شيء من ذلك وليسوا أولى بهذه الامة العظيمة وتقدير فضائلها ـ الصحيحة الثابتة ـ منا .

ولكننا نناشدهم بهذا الحب للعرب الذى يجمع بيننا وبينهم ونلتقى عليه ، وبالتاريخ الذى يثقون به ويحتجون ، هل كان للعرب أن يمثلوا هذا الدور العظيم الذى مثلوه في العالم ، وأن يشغلوا سمع الزمان وبصره ، وأن يغيروا مجرى التاريخ ، لولا هذه الرسالة السماوية التى تسمى الاسلام ، ولولا هذا الكتاب العظيم الذى يعرف بالقرآن لولا تبنيهم لهذه الدعوة الجديدة

وجهادهم في سبيلها ، وهل كان لهم ـ اذا جرت الامور مجراها الطبيعى ـ أن تفرض زعامتهم وسيادتهم على الشعوب والامم ، ذات المدنيات الباهرة العتيقة ، والثقافات الواسعة العميقة ـ وأن تنتشر لغتهم في مشارق الارض ومغاربها فتندرس لغات كثيرة وتنسى ، وتصبح اللغة العربية من ضفاف دجلة في العراق الى الوادى الكبير في الاندلس هى لغة العلم والدين والعبادة والسياسة ، وينبغ فيها أساتذة كبار وأئمة عظام كالجرجانى والزمخشرى وأبى على الفارسى والصغانى والزبيدى ؟ الى أى مساحة زمنية أيها السادة والى أى اعداد ومقادير رياضية كان العرب يحتاجون في الوصول الى هذه السيطرة السياسية والثقافية ، لو بقوا على وضعهم القديم هل كان يمكن ذلك في ألف سنة ؟! فقد مضى على الامة العربية آلاف من السنين وهى تعيش على هامش الامم وفي عزلة عن العالم أم كان لشعرها البليغ وأدبها الرفيع ولغتها العظيمة أن تشق طريقها الى الامام وتبلغ بهذه الامة الى ذروة المجد وأوج السيادة كما وصل بها الاسلام ، فقد كانت المعلقات وكان شيء كثير مما يحتوى عليه ديوان الحماسة قبل أن يظهر الاسلام ويبعث محمد عليه الصلاة والسلام فما أغنى عنها هذا الشعر البليغ وهذا الادب الرفيع

وهذه اللغة العظيمة ولم تخضع للعرب الامم واللغات والادب بل لم يسترع هذا الشعر والادب واللغة انتباه العالم المتمـدن ولم تتوفر الهمم والدواعى على جمعها وتدوينها ونشرها وشرحها الا بعد ظهور الاسلام ، وبعد ما أصبح العرب ـ بفضل الاسلام ـ أساتذة العالم وأصبحت لغتهم وآدابهم ثروة اسلامية يجب على جميع من يدين بالاسلام دراستها والتوسع فيها وحفظها ؟

هذه كلها حقائق تاريخية بل هو التاريخ نفسه ولا أصدق أيها السادة الفضلاء انكم تجحدون التاريخ وتكابرون الواقع الا أن لكم أن تقولوا انما انتشرت اللغة العربية وآدابها بتـــأثير السيادة العربية العالمية وبفضل الحكومات العربية التى قامت في أنحاء العالم كما انتشرت اللغة الانجليزية بتأثير الامبراطوريـة البريطانية واللغة الفرنسيـة بتأثير الامبراطوريـة الفرنسيـة وستنتشر هذه اللغة الكريمة مرة ثانية اذا قامت الامبراطورية العربية فليس الاسلام مرد هذا الفضل انما هى القوة السياسية والسيطرة العالمية .

انني لا أريد أن أطيل عليكم أيها السادة وأسائلكم كيـف قامت الامبراطورية العربية وكيف انبثت سيطرة العرب ؟ ألم

تقم بفضل الاسلام ، فكل ذلك معروف عندكم ، ولكنى أقول لكم ان قضية اللغة العربية وانتشارها وتحكمها في العالم تختلف عن قضية اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية كل الاختلاف ، فاللغات الاوروبية انما تبعت الحكومات الاوروبية ورافقتها في تقدمها ومغامراتها ، وعاشت عيالا عليها ، وكلما نالت أمة استقلالها وتحررها من نير الحكومة الاجنبية ثارت على هذه اللغة وحاولت أن تتخلص عنها في أقرب فرصة لأنها تعتبرها لغة أجنبية طارئة وتعتبرها رمز الاستعمار البغيض والاحتلال المقيت ، وهذاشأن الهند التى اتقنت اللغة الانجليزية كأهلهاوكان فيها أدباء وكتاب وشعراءودستوريون كبار صممت على التخلص منها في مدة قريبة ، وسيكون هذا شأن الجزائر بعد التحرر لأن هذه الاقطار لا تربطها بهذه اللغات الاوروبية عقيدة دينية أو عاطفة روحية انما هى لغات فرضها عليها الاستعمار فرضا فجدير بها أن تتبع الاستعمار في رحيله حتى يتم الجلاء ويتم استقلال البلاد سياسيا وثقافيا .

أما اللغة العربية فقد استمرت في الانتشار والازدهار بعد ضعف الحكومة العربية واستعجالها وظلت تنتشر وتزدهر بعد انتقال القوة السياسية الى الفرس والعجم وظلت تسيطر على أكبر

رقعة من العالم الاسلامى وعلى أعظم مجموعــة مــن العقول البشرية رغم ضعف العرب ، فكانت لغة التأليف ولغة الحكمة والفلسفة ولغة البحث العلمى ولغة الفقه والكلام ولغة التاريخ والادب ولغة التفسير والحديث في ايران وتركستان والهند ، ولا تزال لها مراكز ثقافية كبيرة في الهند وباكستان ، ويبـلغ عدد من يحسنها قراءة وفهما في هذه البلاد الاعجمية مئــات الالوف ولا يزال من يتعصب لها ، واذا خير بين لغته الوطنيـة التى نشأ عليها وبين اللغة العربية التى نزل بهــا القرآن آثر اللغة العربية على لغة بلاده ، وحرص على تعليمها لأولاده . ولا سبب لذلك الا انها لغــة العقيــدة والشريعة ولغة الاســلام « الرسمية » وقد كان الشيخ علي المتقى من رجال القرن العاشر يؤلف في هذه اللغة وليست على وجه الارض حكومة عربيــة صميمة تكافئه على هذا البر باللغة العربية ، وقد كان تلميــذه محمد طاهر البتنى يؤلف كتابه البديع « مجمع بحار الانوار » في شرح غريب الحديث في اللغة العربية ــ وهو في الهــند ــ بعيدا عن مركز هذه اللغة وقد ألف الشيخ محمد أعــلى التهانوى كتابه الفريد « كشاف اصطلاحات الفنون » في القرن الثانى عشر والشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى كتابــه

العظيم « حجة الله البالغة » في القرن الثانى عشر ، وكلاهما آثرا اللغة العربية لأثرهما العلمى الكبير لأنها في عقيدتهما لغة الاسلام ولغة العلوم الاسلامية ولغة المؤلفين الاسلاميين الحبيبة الاثيرة وقد أفاض الاسلام على اللغة العربية قدسية ليست لغيرها من اللغات وغرس حبها في نفوس المسلمين وفي سويداء قلوبهم حتى أصبحوا يؤثرونها على لغة آبائهم وبلادهم وأخفقت الحكومات الجبارة في اقتلاع هذا الحب من نفوس شعوبها المسلمة وقطع صلتها عنها ، وقد منعت الحكومة التركية الاذان باللغة العربية قانونيا وبقى الاتراك المسلمون يحنون الى كلمات الاذان العربية أكثر من ربع قرن حتى اذا سمح لهم بذلك في العهد الاخير ودوى الاذان العربى أول مرة على منابر تركيا سجد الاتراك على الشوارع شكراوفرحا وذبحت ألوف من النعاج والغنم •

فهل للغة من لغات العالم هذه المنزلة في النفوس وهذه المحبة في القلوب ؟ وهل كان للعرب هذا النفوذ العقلى والثقافي في العالم وهل كان لعلومهم وآدابهم هذا النفاق العجيب والرواج العظيم وهذه السيطرة على العقول والقرائح والاقلام لولا الاسلام ولولا البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام •

ونرجع الى الحاضر أيها السادة ونقارن بين مستقبل الامة العربية وقد احتضنت الرسالة المحمدية كما احتضنتها في السابق وأدمجت شخصيتها فيها وقامت تدعو اليها وتكافح في سبيلها وبين مستقبل هذه الامة وقد تجردت عن هذه الرسالة وتخلت عنها وانطوت على نفسها واقتصرت على القومية العربيـــة ودعت الى حضارتها الاولى وآدابها العربية التى سبقت الاسلام .

خذوا أيها السادة أكبر ورقة بيضاء تجدونها وخذوا قلمـا لا ينقطع مداده ، وارسموا قمة المجد التى تستطيع الامة العربية - المتجردة عن الرسالة الاسلامية والزيادة المحمدية - أن تصل اليها ، أرسموا هذه القمة بكل سخاء وشجاعة وارفعوهـــا في اطار الواقع والامكان العملى ما استطعتم ، هل تزيد هذه الامـة على أن تكون كالشعب الهندى أو الشعب اليابانى في الشرق أو الشعب الفرنسى او الشعب الانجليزى في الغرب ، انه أقصى مـا يصل اليه شعب في حدود القومية ولا أريد أن أثير الآن مسألة العدل والظلم والحق والبـــاطل وهل يجوز لشعب ان يستعبد شعبا آخر وان يحتل بلادا أخرى ولكن هذا مدى القوميةوهذه آفاقها وهذه أقصى حدودها .

أين هذه القمة - مهما عظمت وتعالت - من منصب الثقـــة

العالمية التى كانت تتمتع بها هذه الامة ، وهى أمة الرسالة وهى امة الاخلاص والتجرد ، وأين هى من منصب الهداية والامانة
أمة الاخلاص والتجرد ، وأين هى من منصب الهداية والامامة
الذى كانت تتمتع به وهى أمة العقيدة والايمان ، ان نتيـــجة الوضع الاول ـ الوضع القومى ـ الاحقاد والضغائن والثورات والحروب والصراع الذى لا يكاد ينتهى ، ونتيجة الوضــــع الآخر ـ الوضع الدينى ـ الالفة والمحبة والتقدير والاعتراف والهدوء والسلام ، ان الرسالة المحمدية قد بلغت بالعرب الى قمة المجد الحقيقى والسيادة الحقيقية حيث خضعت لهم القـــلوب والرقاب ودانت لهم العباد والبلاد وامتلأت لهم القلوب حباوحنانا ونصيحة واخلاصا « هو الذى ألف بين قلوبكم لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينـهم » ، ولم يعرف التاريخ فاتحا أحبه المفتوحون غير العرب وقـــد اعتبروهم مرشدين ومنقذين ومحررين لأن الرسالة التى كانوا يحملونها هى رسالة فيها الارشاد، وفيهاالانقاذ ، وفيهاالتحرير، وفيها الرحمة وفيها الحياة ، وفيها العقل ، وفيها الانسانية، وهذه الرسالة كفيلة بأن تبلغ بالعرب اليوم الى هذه القمة وان تبوئهم مبوأ صدق ، وأن تمكنهم في الارض وتجعلهم أمة وتجعلهم الوارثــين •

ان الامم أيها الســـادة القوميون لا تعيش بالحضارات ولا تعيش باللغات ، واذا عاشت كانت حياتها قصيرة ، ومصطنعـــة وسطحية ، ان الامم تعيش بالرسالات ، وقد سمعتكم كثـــيرا تقولون : « ان العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة ؟ فما هى هذه الرسالة ؟ اذا كانت الرسالة المحمـــــدية ـ وهى أقرب الرسالات الى الطبيعة العربية والامة العربية ـ فلا مناقشة ، واذا كانت غيرها فما هى أيها الاسياد ؟ وهل هناك رسالة خالدة غير الاسلام ؟ وهل هناك دعوة أو توجيه عالمى يغيث الانسانيـــــة المحتضرة ، والمدنية الغربية المنهارة ويمد الغرب بالايمان واليقين والثقة والقوة الروحية والانسانية السامية ، غير الاسلام الذى لا عيب فيه الا انه أتاكم عفوا من غير تعب وتضحية ، وانتقل اليكم من آبائكم في التراث وعاش فيكم طويـــلا من غـــير أن تدرسوه وتفقهوه .

لقد كان جديرا بكم أيها السادة القوميون أن تقتبسوا هذه الرسالة ولو كانت في أقصى العالم وعند أبعد الامم وتتحفوا الامة العربية بها لتعيش بها كريمة قوية وتتزعم بها العالم وبذلـــك تثبتون اخلاصكم وودكم ووفاءكم لهذه الامة وتكونون قوميين صادقين فكيف وقد أشرقت هذه الرسالة من أفقكم وظهرت في

لغتكم وتمثلت في أمتكم ووصلت الى أقصى حدود العالم عن طريقكم •

ان أعظم مجرم قومى في حق العرب وأضر على هذه الامة من هولاكو وجنكيز خان من يضعف صلتها بهذا الدين ومن ينضب في نفوسها معين الايمان واليقين ومن يحول بينها وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، ان من يرتكب هذه الجريمة هو الذى يمهد الطريق لضياع هذه الامة الكريمة وانهيارها وافلاسها ويتآمر على وجودها وقوتها ويحولها من أمة مؤمنة منظمة قوية ذات عقيدة ، وهدف ورسالة ، وقائد عام محبب الى أمة متشككة ضعيفة لا عقيدة لها ولا هدف ولا رسالة ولا قائد تجتمع القلوب على حبه وتجتمع الشعوب حول رايته ، ان هذا الخواء الذى تحدثه هذه الثورة المشؤومة لا يملأه تنظيم قومى أو حلف عربى، ان الايمان لا عوض له في حياة الامم والافراد، وان الانبياء لا يخلفون بالزعماء السياسيين ، وان الوعى القومى أو السياسى مهما تم وقوى لا يمنح الامة العقيدة الحازمة ، والدوافع النفسية العميقة الى عمل الخير ، والاخلاق المستقيمة، ولو أغنى هذا الوعى عن أمة لأغنى عن الشعوب الاوروبية ، وما كانت فريسة التفسخ الخلقى والفوضى العقلية ، ولما تعرضت للنهاية الاليمة القريبة •

ان هنالك أمما في الشرق بدأت تشعر بهذا الخواء الروحي ، والافلاس في الايمان والعقيدة ، وفقدان قائد ديني روحي يجمع بين الشعوب والطبقات ، ويذيب اختلاف اللغات والثقافات ، ويغلب على العصبيات المحلية أو الحزبية ، والحزازات السياسية فقامت تبحث في تاريخها عن نبي أو قائد روحي تجعله اماما وقائدا وتدعو باسمه ، وقد أحيت الامة الهندية حديثا ذكرى بوذا ذلك الذي اضطهدت ديانته ونفتها من الهند في العهد القديم ، واحتفلت به الهند حكومة وشعبا ، وقد نشط في ذلك كبار الملاحدة والزعماء السياسيين الذين لا يدينون بدين ولا يؤمنون بعقيدة ، وذلك كله حرصا على جمع شمل هذه الامة العظيمه التي تتوزعها شعوب وطبقات وعصبيات ، وعلى اعادة الحياة والروح اليها ، فمن المؤسف المحزن المخجل ان يقوم في هذا الوقت في العالم العربي رجال يدعون الى القومية العربية المجردة من العقيدة والرسالة ، والى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الاديان وعن أقوى شخصية ظهرت في العالم ، وعن أمتن رابطة روحية تجمع بين الامم والافراد ، والأشتات والأضداد ، انها جريمة قومية تبذ جميع الجرائم القومية التي سجلها تاريخ هذه الامة وانها حركة هدم وتخريب تفوق جميع

الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ ، وانها خطوة حاسمة مشؤومة في سبيل الدمار القومى ، و « الانتحار » الاجتماعى •

انني أعتقد أن في القوميين رجالا مخلصين جادين ، لم يدفعهم الى هذا التفكير الخاطىء الا الحب الزائد للعرب ، والحرص على مجدهم وعزهم والنزعة القومية التى طغت بتأثير الغرب على جميع الشعوب وانهم لم يتعمقوا في هذه المسألة تعمق الخبير المفكر ولم يختبروا نتائج الحركة القومية المجردة عن الاسلام ، الواسعة وما تجنيه على العرب أنفسهم من ويلات وخسارات وتحولات عظيمة وانهم لا يزنون شيئا الا في ميزان النفع للعرب وانهم اذا قيل لهم اتقوا الله في العرب، لم تأخذهم العزة بالاثم •

الى اولئك المتجردين عن حمية الجاهلية الباحثين عن الحق التابعين للحقيقة أهدى هذه الكلمة المخلصة •